الدين والأوبئة والمرض

القسّ رفيق إبراهيم
راعي الكنيسة الإنجيليّة العربيّة
في تيميكلا،
كاليفورنيا، الولايات المتّحدة

مقدمة

يوم الثلاثين من يناير ٢٠٢٠، أعلنت لجنة طوارئ الصحّة الدوليّة التابعة لمنظّمة الصحّة العالميّة (WHO) تفشّي فيروس كوفيد ١٩ في كلّ دول العالم. وفي الحادي عشر من مارس، وصفت منظمة الصحّة العالميّة كوفيد ١٩ بأنّه وباء عالميّ. هذا الفيروس، الذي ينتمي إلى عائلة معروفة من الفيروسات التاجيّة التي تحمل اسم كورونا، طوّر ذاته وانتقل من الحيوان إلى الإنسان.

مع إزدياد حال الخطر، خرجت علينا أصوات من هنا ومن هناك، منها خطاب دينيّ ينادي بالتوبة قبل خراب العالم مستخدمًا نصوصًا كتابيّةً نبويّةً وتفسيرات تذهب في هذا الاتّجاه. واستخدم بعضهم التفسير الرمزيّ للنصوص الكتابيّة. كما نادى آخرون باتّباع إرشادات المسؤولين والعلماء، فهم أدرى بالحالة! وثمّة مَن اتّخذ موقف التخويف والتهويل، أو موقف الوعظ والتشجيع وصولاً إلى الفرح والابتهاج في وسط التجارب والأمراض. بعضهم كانت له أجندات سياسيّة، فاستخدم الخطاب الدعائيّ لجمع مزيد من أصوات الناخبين. أمّا بعضهم الآخر، فصمت واستولت علية مشاعر الدهش والاستغراب!! كذلك خرجت تصريحات من هنا وهناك تنادي بالانعزال طمعًا في عدم انتشار الوباء. واستهان بعضهم وعاش حياته كأنّ شيئًا لم يكن، ما جعل الدول التي استهانت تدفع ضريبةً كبيرة. يبقى السؤال: ماذا علينا كمؤمنين أن نفعل، وكيف نستجيب، وما هو ردّ الفعل المسيحيّ المتوازن، وهل من مجيب؟

إنّ العلاقة بين الدين والمرض قديمة جدًّا. ففي القبائل البدائيّة، كان كاهن القبيلة هو الطبيب الذى يرشد الناس إلى الشفاء. هذا ينطبق أيضًا على الحضارات القديمة. ففي الحضارة الفرعونيّة، على سبيل المثال، نجد أنّ كهنة آمون كانوا يسيطرون على حياة الشعب اليوميّة ويتدخّلون في السياسة وفي شؤون بيت فرعون. سيبقى هناك صراع بين العلم والدين والسياسة في طرح وجهات نظر مختلفة ومحاولة تفسيرها. ولقد كشفت أزمة كورونا أنّ النقاش يدور حول من يملك الحلّ في الشفاء. فالسياسيّون يتلاعبون بالناخبين ويتسابقون على التصريحات. والعلماء يتاجرون باكتشافاتهم ويبيعونها لمن يدفع أكثر.

والمتديّنون يتاجرون بالدين وبتفسيرات النصوص المقدّسة. واكتشفنا أنّ الكلّ يتلاعب بمشاعر الناس كالخوف من الموت والهلع من انتهاء الحياة. ولكنّ المرتجى هو قيام فكر يوازن بين الوعي والإيمان، بين العلم واليقين بالله: ما أجمل أن يجتمع علماء يبحثون عن الدواء في المختبرات، ورجال ونساء أتقياء يسجدون ويطلبون من الله التدخّل في هذا الموقف.

السؤال المطروح هو: ما الذي يمكن أن تقوله المسيحيّة في زمن تفشّي الوباء؟ وما هي القضايا اللاهوتيّة التي أثيرت خلال الحجر الصحيّ لبلدان بأكملها وفي خضمّ التغطية الإعلاميّة عبر القارات وقيود السفر والأزمة الاقتصاديّة؟ نحاول، هنا، أن نلخّص الآراء التي ظهرت:

رأيّ سياسيّ: كما حدث في الصين بغية السيطرة على الوباء. فتحرّكت السلطة العليا بغضّ النظر عن الدين والإيديولوجيّات المختلفة. فالصحّة العامّة أهمّ من أيّ شيء آخر.

رأي سياسيّ يتلاعب بالناخبين ويحاول حصد أصواتهم مستغلاً ظاهرة الوباء.

رأي دينيّ متطرّف: نهاية العالم وشيكة، والله جاء بضربة الوباء بسبب شرور الانسان.

رأى دينيّ معتدل: نتّبع إرشادات العلماء مع الصلاة وطلب وجه الربّ.

رأي تهويليّ: الخوف من أن ينتشر الوباء بشكل سريع ويحصد الملايين.

رأي علميّ متوازن: اتّباع الإرشادات الصحّيّة مع العمل الدؤوب في المختبرات حول العالم لاكتشاف اللقاح المضادّ مع وجود متطوّعين، وذلك بغية الوصول إلى أفضل النتائج.

أمّا الرأي الفاصل في هذه القضيّة، فهو الذي يجمع بين العقل والايمان معًا في مواجهة أيّ أزمة. فلا بدّ من إيجاد خطط تنظّم سلوكيّات البشر قبل الأزمات وأثناءها وبعدها. كما لا بدّ من أن تكون الكنيسة مستعدّةً لذلك.

لقد كشف فيروس كورونا الكثير من الآراء التي صدرت من أفواه أصحابها، فضلاً عن التصريحات التي خرجت علينا من طريق وسائل التواصل الاجتماعيّ، والتي اختلط فيها كلّ شيء: العلم والإيمان والسياسة وحبّ الشهرة وصولاً إلى اللاهوت والفتاوى.

كلّ هذا وضع العقل العربيّ في محنة. والأكيد أنّنا نحتاج إلى كثير من الاستعداد لنكون قادرين على التعامل مع الاوبئة، ومع أيّ أزمة من منطلق حياة أو موت. لن يمرّ وقت طويل قبل أن يطرح الناس السؤال عن اللماذا: «إذا كان الله يحبّنا، فلماذا لا يوقف هذا الوباء؟». من المؤكّد أنّ بعض الوعّاظ سيعلنون أنّ هذا الوباء هو دينونة الله على العالم! ولكن قبل أن نقفز إلى الاستنتاجات اللاهوتيّة حول دينونة الله، دعونا نطّلع على بعض الأفكار من منظور كتابيّ.

المنظور الكتابيّ

لقد جعل الله هذا الكون مكانًا جميلًا مثاليًا: لا شرّ ولا فيروسات ولا سرطان ولا إدمان. إن نظرنا إلى الخليقة، نرى علاماتٍ وظواهر في الطبيعة تعلن عن ترتيب الله المثاليّ المبدع للخليقة والإنسان. يؤمن المسيحيّون أنّ الشيطان تمرّد على الله،، ثم أغوى أوّل البشر بأن يفعلوا الشيء ذاته. عندما أخطأ آدم وحواء، جرى إطلاق شيء في الكون لا ينتمي الى قداسة الله. ولذلك، فسدت الطبيعة وتسمّمت الأجواء. تمّ تدمير الكمال حتّى وصل الفساد إلى كلّ جزء في الكون. جاء الربّ يسوع لكسر قوّة الخطيئة والشرّ والفوضى بموته على الصليب وقيامته. وفي يوم من الأيّام، بحسب سفر الرؤيا، ستكون هناك سماء جديدة وأرض جديدة، بلا شرّ ولا فيروسات ولا سرطان ولا إدمان، ولكنّ ذلك اليوم لم يأتِ بعد. هذا هو رجاء الكنيسة.

لكن إذا كان الله يحبّنا، لماذا لا يوقف الفيروس الآن؟ إذا كان جوابنا «يجب أن يكون لله أسبابه، ونحن لا نعرفها»، فهذا منطق أجوف وضحل؛ ومع ذلك فهو صحيح إلى حدٍّ ما. فالله غير مدين لنا بتقديم أيّ تفسير. ولقد كان الناس في الأزمنة القديمة يضحكون على فكرة أنّ المسيحيّة تتبنّى فكرة إله يعلن عن نفسه ويفسّر نفسه بالتجسّد. هذا ما يجعل رسالة سفر أيّوب غايةً في الأهمّية. فعندما يصرخ أيّوب إلى الله لأنّه يعاني بشكل غير عادل، لا يجيبه الله بشرح ولكن بلقاء في الأزمة. من المناسب، إذاً، أن نصلّي إلى الله ونسأل «لماذا؟». ولكن من الجيّد أيضًا أن نعرف أنّ الله قد لا يجيبنا بالكلمات، فهو قد أجاب في المسيح. يأتي الله في نهاية المطاف ليتيح لنا وصولاً غير محدود إليه، لأنّه أعلن عن نفسه في المسيح. لذا، في كلّ أزمة لا بدّ من أن نتمسّك بإعلانه، أي بشخص المسيح. الله يعلم أنّنا بحاجة إليه أكثر ممّا نحتاج إلى إجابات عن أسئلة لاهوتية.

بالرجوع إلى التاريخ، نجد أنّ تلاميذ الربّ يسوع الأوائل عندما واجهوا المعاناة البشريّة، لم يكتبوا تفسيراتٍ طويلةً يحاولون فيها شرح أفعال الله، بل خدموا المعاناة. حين ضرب الطاعون مدينةً رومانيّةً مثلاً، كان الناس يفرّون تاركين المرضى يموتون وآملين أن يموت الطاعون معهم. أمّا المسيحيّون، فلم يغادروا، وذلك بغية رعاية المرضى. لقد صلّوا طالبين رحمة الله والشفاء، وكانوا يعتقدون أنّه من الأهمّ أن يكونوا هم أيدي الله وأقدامه في وسط الازمة بدلاً من تفسيرها وإعطاء أجوبة لاهوتيّة. ما أجمل أن يكون هناك علماء يعملون في صمت الليل لاكتشاف لقاح لهذا الفيروس إلى جانب ركبٍ تصلّي من أجل
أن يرحم الله العالم. لقد أعاد هذا الفيروس طرح السؤال الوجوديّ عن معنى الحياة وغرضها. إنّه الآن وهنا: كُن إنسانًا! الإجابة تكمن دائمًا في ما قدّمته المسيحيّة للفكر البشريّ والذي لم يقدّمه أيّ فكر أو فلسفة أو دين آخر. لقد قدّمت لنا إلهًا جاء إلى العالم وتألّم ورفض وبكى وصُلِبَ. وفسّرت لنا أنّ هناك نهايةً للألم وأنّه لن يستمرّ إلى الابد، بل لنا وعدٌ بالنعمة والحبّ الإلهيّ والشركة مع الله هنا على الأرض وهناك في الأبديّة. فعلاقة الحبّ والعناية والرجاء لن تنتهي، والمصالحة علاقة أبديّة مع المسيح. وقدّمت لنا المسيحيّة رجاء القيامة، فهناك انتصار على الموت. وكما سيكون هناك حبّ في المستقبل الأبديّ، سيكون هناك مجد في الأبديّة. فنحن خُلقنا من التراب، وبالمسيح نتحوّل إلى المجد. هذا ملخّص الحياة مع المسيح وما قدّمته المسيحيّة للإجابة عن السؤال عن معنى الحياة والغرض منها.

إنّ غالبيّة الأديان ترى أنّ الألم عندما يقترب منك يأخذ شيئًا منك، أي الحياة. ولكنّ الألم في المسيحيّة يُضيف شيئًا على معنى الحياة وغرضها. فنحن نتألم لكي نتمجّد. فهل نُدرك الآن معنى صليب المسيح وقوّة قيامته؟ في القرن الرابع عشر (السادس عشر؟) حين حصد الطاعون الأسود نحو ٢٥ مليون شخصًا في أوروبّا، أي حوالى ثلث سكّان القارّة، كان من الواضح أنّ الوضع خطير جدًّا. وحين سئل مارتن لوثر، وكان من أعظم اللاهوتيّين في ذلك الوقت، كيف يجب أن يتعامل المسيحيّون مع هذه الأزمة الصحّيّة، صلّى قائلاً: «أتضرّع إلى الله أن يحمينا راحمًا. لكنّي أيضا سأتطهّر. سأسعى لتنقية الهواء، سأقدّم الدواء للآخرين وأتناوله، سأتجنّب الأماكن والأشخاص حيث يكون وجودي غير مطلوب، ذلك لكي لا أصاب أنا ولا أصبح سبب بلاء آخرين وإصابتهم، ولكي لا أتسبّب في

موتهم نتيجةً لإهمالي، حتّى إذا أراد الله أن يأخذني، سيجدني وقد قمت بما سبق وتوقّعه مني، وبالتالي لا أكون مسؤولاً عن موتي أو عن موت آخرين. مع ذلك، إذا احتاجني جاري، سأذهب إلى أيّ مكان وإلى أيّ شخص، بكامل إرادتي، كتعبير عن الحبّ. انظروا! هكذا يكون الإيمان الخائف الله حقًّا، إنّه إيمان غير متهوّر، ولا يجرّب الله برعونة».

تطبيقات عمليّة

من هنا نستخرج بعض التطبيقات العمليّة في وقت الأزمة والمرض:

أوّلاً: علينا أن نحبّ الآخرين.

منذ الأزمنة الأولى للمسيحيّة، كانت هذه المحبّة تعبّر عن ذاتها بالتراحم ورعاية المحتاجين. إنّ مثل هذا التعليم مُتَضمَّن في الأناجيل، وتعليم الرسل والكنيسة منذ البدء كان يتّصف بالتوازن بين خدمة الكلمة وخدمة الأرامل. فالمسيحيّة تبني الكنائس وتبني المستشفيات. وهذا يقوم على الإيمان بأنّ الناس جميعهم مخلوقون على صورة الله ويستحقّون الاهتمام.

مثل هذا الحبّ مكلف ومركّز على الآخر. إنّه يُعطي المحتاجين بدلاً من إصدار أحكام تقرّر من يستحقّ المحبّة ومن لا يستحقّها. أمّا بالنسبة إلى قضيّة العقاب الإلهيّ، فإنّ جواب الربّ يسوع في مثل السامريّ الصالح هو أنّ محبّة القريب تعني رعايةً فعليّة لعدوّك. هكذا يستطيع الإنسان أن يحبّ عدوّه بشكل عمليّ.

مع انتشار الوباء، من الضروريّ أن تحبّ الآخرين وتفكّر فيهم قبل التفكير في نفسك. من المؤكّد أنّ صراع الناس في المتاجر الكبرى من أجل شراء المواد الغذائيّة، وكأنّ نهاية العالم قد حلّت، لم يكن من باب الهلع والذعر فحسب، فمن الواضح أنّ دافع الرعاية الذاتيّة تسبّب بجزء من هذا التصرّف – فلا أحد يرغب في التقاط فيروس كورونا ونقله إلى الآخرين. ولكنّ الوباء يدعو المسيحيّين إلى التفكير في كيفيّة إعطاء الأولويّة لمساعدة الضعفاء والمعزولين والمسنّين، الذين قد لا يمتلكون الموارد والقدرة البدنيّة لرعاية أنفسهم.

ثانيًا: عامل/عاملي الآخرين كما تريد/تريدين أن يعاملوك.

يجب أن تكون هذه «القاعدة الذهبية» معيارًا للسلوك المسيحيّ طوال الوقت، وذلك كما يقول بوب ديلان في هذه المقطع: «إفعلها بحقّ يا حبيبي (كما تريد أن يفعلها الاخرون معك).

لا أريد أن أحكم على أحد، لا أريد أن نحكم على أحد ونكون مكان الله نصدر الأحكام وندين البشر». يجب أن نكون مسؤولين قدر الإمكان عن عدم المخاطرة بصحّة الآخرين من دون داعٍ، وخصوصًا إذا كانوا في صحّة غير جيدة، أو كانوا من المرضى. إنّ تعاليم الربّ يسوع تدعونا إلى أن نضع أنفسنا مكان الآخرين – وهذا يشمل المسنّين ومَن يعانون من مشاكل صحّيّة كامنة، وبخاصّة في الجهاز التنفسيّ.

ثالثًا: هناك أمل دائمًا، فلا نخف.

ثمّة الكثير من الخوف لا على صحتنا فقط، بل أيضًا بالنظر إلى ظروفنا الاقتصاديّة ومن أين سندفع فواتيرنا الشهريّة إذا مكثنا في البيوت. هذا يرتبط بقطاع كبير من الوظائف. فعندما تتوقّف حركة الطيران مثلاً، يتوقّف قطاع بأكمله. هناك بالطبع حذر سليم ومسؤول غايته احتواء الفيروس. لقد قيل لنا في كاليفورنيا إنّه يجب الامتناع عن التجمّعات التي يتخطّى حجمها مئة شخص، ما سيوقف الكثير من اجتماعات الكنائس. قد يكون هذا ضروريًا، ولكن متى يتحوّل القلق على الصحّة إلى خوف لا أساس له؟ الخوف الذي يصبح مدمّرًا هو الهلع. والخوف هو أن نفرط في الحماية الذاتيّة. الخوف ليس ميزةً مسيحيّة. يجب أن تصبح الأزمة مجالاً لظهور الفضائل المسيحية مثل الإيمان والمحبّة والرجاء، لا لانتشار القلق والأنانيّة واليأس.

رابعًا: الوباء باعتباره مدرسةً لممارسة «الإيمان».

يروي المؤرّخ الكنسيّ يوسابيوس كيف عُرفت الكنيسة الأولى برعايتها للمرضى في أزمنة الحرب والمجاعة والطاعون. وهذا وصف للأحداث في الإسكندريّة كما سجّلها يوسابيوس (التاريخ الكنسيّ ٢٢) قمت بترجمتها حرفيًا: «إنّ قلب المدينة أكثر خرابًا وعذابًا من تلك الصحراء الشاسعة وغير القابلة للسير التي اجتازها الإسرائيليون في جيلين (...). يتساءل الرجال من أين تأتي الضربات المستمرّة؟ من أين هذه الأمراض الخبيثة؟ من أين تلك الالتهابات المتنوّعة؟ من أين كلّ هذا الدمار الهائل في الحياة البشريّة؟ ولكن الآن كلّ الأشياء مليئة بالدموع، وكلّها حداد، بسبب الجموع التي ماتت بالفعل، ولا تزال تحتضر. فإنّ الآهات تتعالى يوميًّا في جميع أنحاء المدينة (...) [كان هذا الوباء] مصيبةً أكثر فزعًا لهم [الوثنيّين] من أيّ خوف، وأكثر حزنًا من أيّ بلاء، كما قال أحد مؤرّخيهم. وكان هذا الوباء في ذاته

يفوق كلّ أمل بالنسبة إلينا. في الواقع، كان معظم المسيحيّين بفضل حبّهم الكبير ومحبّتهم الأخويّة والتزامهم بعضهم ببعض يشرفون باستمرار على المرضى ويخدمون رغباتهم من دون خوف أو توقّف، ويحاولون علاجهم بدافع المحبّة. كثيرون منهم أيضًا نقلوا موتى بأنفسهم بلا خوف من الموت. المسيحيّون في هذا الموقف كشفوا عمليًّا كيف يظهرون محبّة المسيح للكل، بينما كان العكس يجري بين الوثنيّين: لقد طرد أولئك مَن بدأت أعراض المرض تظهر عليهم، وتجنّبوا أصدقاءهم الأعزّاء. كانوا يطردونهم في الطرق نصف موتى، أو يرمونهم عندما يموتون من دون دفن متجنّبين أيّ تواصل أو مشاركة في دفن الموتى». بالمقارنة مع هذا الموقف التاريخيّ لمسيحيّي الإسكندريّة، يتصرّف كثير من مسيحيّي القرن الواحد والعشرين على نحو مماثل مدفوعين بالمحبّة ذاتها عبر ما يصنعونه مع المرضى. طبعًا، تعريض الآخرين للخطر هو أمر غير مسيحيّ. ولكنّ إيماننا هو أنّ الموت ليست له الكلمة الأخيرة. لقد تمّ تجاوز الموت بالفعل، فبفضل موت الربّ يسوع وقيامته فقدت أفعى الموت قوّتها ولدغتها.

خامسًا: وهم عدم السيطرة.

هل هناك ذعر وهلع في الغرب من فقدان السيطرة؟ يردّد بعضهم: «إذا تمكّنّا فقط من الإمساك بهذا الوطواط الذي كان سببًا في نقل الفيروس»، أو «إذا كان في إمكاننا ارتداء هذه الماسكات الواقية»، أو «إذا اتّخذنا هذه الاحتياطات، فسوف نكون آمنين». هل هذا يحمينا فعلًا؟ مرّةً أخرى: بالتأكيد سوف نعيش ثانيةً في عالم جديد تكون فيه أجسادنا ممجّدةً، وسنتحرّر من الضعف ومن الوباء ومن التهديد بالموت. أليس هذا خبرٌ سار يحمل لنا الرجاء؟

دعونا نعترف بأنّنا نخاف من عدم قدرتنا على السيطرة على الفيروس. أحيانًا نشعر بأنّ الحضارة الإنسانيّة لا تبعد سوى بضع خطوات عن الفوضى مهما بلغ تقدّم التكنولوجيا. إنّ الأوبئة تذكّرنا بأنّنا لسنا مسيطرين، وذلك مهما أحببنا أن نعتقد أنّنا سادة على أحداث حياتنا، وحتّى على أجسادنا. وكما يقول ستانلي هاوروا: «في الغرب نودّ أن نعتقد أنّ لدينا التكنولوجيا الطبّيّة لنستمرّ على قيد الحياة. المشكلة هي أنّ الحياة لديها معدّل وفيّات مئة في المئة».

سادسًا: نتكلّم بنعمة ولا نلوم أحدًا.

يرتبط وهم السيطرة ارتباطًا وثيقًا بلعبة اللوم. يجب أن يكون هناك دائمًا مَن يقع عليه اللوم حين تجري أمور خاطئة. وبالتالي، يخامرنا رعب عنصريّ من الأجانب وننقاد إلى التهجّم اللفظيّ والجسديّ على الأفراد أو المجتمعات المرتبطة في ذهننا من طريق الخطأ بِـ «التسبب» في الفيروس (الصينيّون مثلاً) وتهديد طريقة حياتنا. فبدلاً من التضامن والتعاطف والمساعدة، نجد اللوم!! ولكنّ نعمة الله تدعونا ألّا نلوم أحدًا ونلقي بالمسؤوليّة عليه، فنحن الآن في خندق واحد. لست بحاجة لقول المزيد هنا – المسيحيّون مدعوّون قبل كلّ شيء إلى إظهار نعمة المسيح للجميع .